

الصحراء من النصوص المقدسة إلى النصوص الهوامش:

قراءة مقارنة في رمزية الفضاء

*The desert from sacred texts to marginal ones :
Acomparative reading in the symbolism of space*

زهرة الثابت¹

thzohra@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2026/03/29 تاريخ النشر: 2026/06/11

Received: 29/03/2026 published: 11/06/2026

ملخص المقال:

احتلت الصحراء مكانة مهمة عند الإنسان البدوي منذ أقدم العصور، فملأت عليه كيانه حتى أصبح يرى فيها مأوى للاستقرار وملاذا للأمان. فهي قد باتت فضاء مقدسا وملهما. وقد استهت تلك أفصحت عنها النصوص المقدسة خصوصا وأن الصحراء كانت الحضان الدافئ الذي احتضن الأنبياء والرسل فكانت فضاء جغرافيا رامزا بامتياز. وتطمح هذه الورقة العلمية إلى النظر في الدلالات الرمزية التي ثوتها الصحراء في تجارب الأنبياء وقراءتها قراءة مقارنة عبر الرحيل الثقافي من ديانة إلى أخرى ومن نص تأسيسي إلى نص هامشي، عدتنا في ذلك النصوص المقدسة عهدا قديما وعهدا جديدا وقرأنا كريما وقصصا وتفسيرا. كلمات مفتاحية: الصحراء - الرمز - العهد القديم - العهد الجديد - القرآن الكريم - القصص - التفسير.

Abstract:

The desert has occupied an important place for Bedouin man since ancient times. It filled his being until he came to see it as a haven for stability and a refuge for safety. It has become a sacred and inspiring space. Its sanctity was revealed in the holy texts, especially since the desert was the warm embrace that sheltered the prophets and messengers. It was a symbolic geographical space par excellence. This scientific paper aims to examine symbolic meanings that the desert has instilled in the experiences of the prophets and to read them comparatively through the cultural migration from one religion to another and from a foundational text to a marginal text. Our evidence for this is the sacred texts : the Old Testament, the New Testament, the Holy Quran, stories and exegeses.

Keywords: : Desert – Symbol – Old Testament – New Testament – Holy Quran – Stories – Exegeses.

مقدمة:

للصحراء منزلة مهمة في ضمير الفرد منذ قدم الزمان، إذ هي "أصل العمران والأمصار مدد لها" (الألوسي، د.ت، ص.333)، وهي الفضاء الذي نشأ فيه العربي على وجه الدقة وترعرع، وهي حله وترحاله كلما أضناه السفر، وهي ملاذه الآمن من قسوة البرد ولفح القيط وعدوان الحيوان أو البشر على الرغم من امتداد هذا المكان وقسوته وانعدام الحياة ربما فيه، إذ "راح الإنسان الأول يحمي في كهف بحضن جبل أو تجويف في كثيب الرمل أو فجوة في مغارة" (مجموعة من المؤلفين، 1988، ص.5). زيادة على ذلك فقد كانت الصحراء أيضا فضاء ملهما للشاعر فكانت بؤرة الأشعار والأساطير. بل فضاء التأمل والتفكير ومهد الرسائل السماوية والأديان. فالصحراء على هذا النحو هوية وانتماء بل هي "كنز ومكافأة لمن أراد النجاة من استعباد العبد وأذى العباد، فيها الهناء، فيها الفناء فيها المراد" على تعبير الكوني. (الكوني، 1992، ص.24).

ولما كانت الصحراء على هذا النحو من الأهمية فقد ملأت على البدوي قلبه ونفسه وتفكيره، فباتت ملهمة الشاعر في نظم القصيد والوقوف عند بؤر الجمال فيها، في ملامحها النابضة بالحياة، في الإنسان والحيوان والماء والنبات والكواكب والسماء والجبل الأشم وفي ملامحها الموحشة والبشعة. وكانت الصحراء أيضا قاذح الروائي لكتابة الرواية والقصة والأسطورة لأنها أُمست فضاء مقدّسا أوليت هي موطن الرؤى السماوية التي أشارت إليها النصوص المقدسة مدار اهتمامنا؟.

وتطمح هذه الورقة العلمية إلى قراءة دلالة الصحراء الرمزية قراءة مقارنة في الأديان الإبراهيمية التوحيدية من خلال النصوص المقدسة عهدا قديما وعهدا جديدا وقرأنا كريما ومن خلال النصوص الهوامش التي حفت بنص الوحي الإسلامي يحدونا في ذلك هاجس تبين المعاني الدلالية التي فاضت بها الصحراء مكانا، إذ لاح لنا أن هذا الفضاء كان مهبط الأنبياء والرسول، وفضاء الحكمة والنبوءة، وملاذا للأمن والاستقرار بل فضاء الموت والعدم أحيانا.

مدخل مفهومي

1.2 في معنى الصحراء

2 يلحظ المتقفي لأثر كلمة "صحراء" المكونة من الجذر الثلاثي (ص.ح.ر) أنها تدل على معنيين أحدهما البراز من الأرض والآخر لون من الألوان ويقال أصحر القوم إذا برزوا إلى الصحراء لا يستترهم شيء وأصحر الرجل نزل الصحراء وبرز إلى فضاء واسع لا يواريه شيء والأصل الآخر الصحرة وهي لون أبيض متشرب بحمرة (ابن فارس، ص.333). وجاء عند ابن سيده صحر: هي الأرض المستوية في لين وغلظ دون القف وقيل هي الفضاء الواسع. والصحراء من الأرض مثل ظهر الدابة الأجرد ليس بها شجر ولا أكام ولا جبال ملساء يقال صحراء بينة، الصحر والصحرة، أصحر المكان أي اتسع، أصحر الرجل نزل الصحراء صحر القوم برزوا في الصحراء، الجمع الصحاري. والذي يستشف من هذه التعاريف اللغوية أن الصحراء فضاء متسع ممتد لا مياه فيه

ولا حياة. وللصحراء أسماء هي البثنة والبرية والبسيس والبلقع والبحر والبيداء والتيماء والفلاة والقيفاء والقاع والمفاضة والمهلكة والبهماء وغيرها.

3 أما اصطلاحاً فالصحراء هي الفضاء الممتد الذي يكاد ينعدم فيه الزرع والكلأ لقلّة الأمطار وندرّة المياه والأنهار. فهي "الخلاء الواسع المترامي العجيب الخالي من جل مظاهر الحياة النباتية والحيوانية وذلك إلى جانب ندرة الماء وارتفاع الحرارة التي تؤدي إلى تبخر جزء كبير جداً مما قد يسقط عليها من أمطار متفرقة" (صالح، 1996، ص. 67)، وهي المكان الذي تتنوع فيه التضاريس بين الرمال والوديان والجبال والصخور والمغارات وهو أيضاً المكان الذي يعرف بحره الشديد وقره القارس. إنها "أقاليم قاحلة منعزلة تعاني من نقص في المياه وتتمثل الحياة النباتية فيها في بعض الأعشاب الشوكية المبعثرة التي لا تكفي لإعادة أي مجموعة بشرية مستقرة وأحياناً تعطي هذه الأراضي الرمال وهي بشكل عام هشّة بيئياً لعدم انتظام الأمطار" (أبو علي، 2010، ص. 41).

4 وقد كانت الصحراء قديماً ملاذ العربي ومسقط رأسه و"كان موقع الصحراء في الجزيرة العربية الذي يقع في هضبة كبيرة مكونة من جبال وصحاري رملية. أما الصحاري فأهمها صحراء السماوة أو صحراء النفوذ وتشمل معظم شمال الجزيرة، ورمالها وعثاء يصعب فيها السير وتسوح فيها القدم وسكانها بدو رحل يقيمون فيها شتاء ويرحلون منها صيفاً إلى التخوم الشمالية طلباً للماء والكلأ، وصحراء الربع الخالي وفيها بلاد الأحقاف وهي شمالي حضر موت ومع هذه الصحراء جزء يسمى الدهناء شمالي مهرة، وتتصل الصحراء ببادية السماوة وتمتد شرقاً إلى الخليج الفارسي وأرضها مستوية صلبة مجدبة، وقد ينزل بها مطر قليل" (خفاجي، 1980، ص. 13). وعليه فالصحراء هي الفضاء المكاني الدال على معاني القفار والخلاء والامتداد وانعدام أسباب الحياة.

2.2 في معنى الفضاء:

جاء في لسان العرب أن الفضاء من فضا المكان وأفضى أي اتسع وأفضى فلان أي وصل إليه وأوصله بمعنى أنه صار في فرجته وفضائه وحيزه (ابن منظور، د.ت.)، ويذكر صاحب الصحاح أن الفضاء هو "الساحة وما اتسع من الأرض" (الجوهري، ص. 2455). أما اصطلاحاً فالفضاء أعم من المكان وهو "أشمل وأوسع من معنى المكان والمكان بهذا المعنى مكّون للفضاء" (لحميداني، ص. 63)، بل هو "الفضاء الرحب الذي يحددنا ونحدده، ويحيط بنا من كل جانب، من فوقنا ومن تحتنا، وعن أيّماننا وشمائلنا، لانتهائي يؤدي دوراً ذا أهمية في الفهم والتفسير باعتباره مكّوناً من مكونات الخطاب الأدبي" (علي إسماعيل، صص. 40-41). فالفضاء هو الامتداد والاتساع وتلك لعمري بعض خصائص الصحراء لاسيّما في النصوص التوحيدية التأسيسية والنصوص الثواني، إذ هي المتاهة في المكان والفضاء الصامت الذي ينبغي استنطاقه لأن الصحراء في هذه المدونة التي نعتمد ليست إلا بيئة غنية بمضامينها ودلالاتها الرمزية العميقة.

رمزية الصحراء بين النصوص المقدسة والنصوص الهوامش

لم تكن الصحراء في النصوص المقدسة والنصوص الحواف فضاء موحشا وهامشيا، بل كانت فضاء يفيض بالرموز والدلالات التي جعلت منها نسقا ثقافيا نستشفه من خلال قراءة تأويلية مقارنة، بدا فيها هذا الفضاء مهبطا للأنبياء ومهدا للحكمة والنبوءة وملاذا للأمن والأمان وأحيانا أخرى منفى وعدما.

1.3 الصحراء مهبط الأنبياء:

تتجلى الصحراء في النصوص المقدسة فضاء يأوي الأنبياء منذ بعث الإنسان على وجه البسيطة، ونلمح ذلك من خلال تجربتي آدم أبي البشرية ونوح. فالمتأمل في قصة آدم في العهد القديم لا يكاد يعثر على أمر ذي بال في وصف الفضاء الذي نزل به آدم وزوجه بعد أن أكلا من الشجرة المحرمة شجرة الخير والمعرفة، عدا عبارات متناثرة توحى في ظاهرها بأن المكان قفار من قبيل كلمة "البرية" أو "الحسك والشوك". ولا يختلف القرآن الكريم عن العهد القديم في تكتمه عن مكان نزول آدم، ولعل ذلك ما فتح شهية التأويل وإمكان التخيل لدى المفسرين والقصاص. إذ يعثر القارئ لتاريخ الطبري على حديث نصه التالي: "وقال آخرون أهبط آدم بسندريب على جبل يدعى بوذ وحواء بجدة من أرض مكة" (الطبري، ص. 122)، ثم يستطرد متحدثا عن آدم لما استوحش وشكا وضعه إلى الله فيقول: "وجه إلى مكة فصار موضع قدمه قرية وخطوته مفازة حتى انتهى إلى مكة" (المرجع نفسه، ص. 123).

أما المتصفح لتفسير ابن كثير فيقف على أحاديث تذكر أن مهبط آدم كان بالهند وحواء بجدة، فهو القائل: "قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن عطاء عن سعيد عن ابن عباس قال: أهبط آدم عليه السلام إلى أرض يقال لها دِخْنًا بين مكة والطائف" (ابن كثير، 1997، ص. 237)، وفي حديث آخر منقول عن ابن عمر أن آدم أهبط "بالصفاء وحواء بالمروة" (المرجع نفسه، والصفحة نفسها). أما في قصص الأنبياء فيذكر ابن كثير أن الفضاء كان صحراويا وأن الطقس فيه كان حارا فقد نقل حديثا عن "أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هبط آدم وحواء عريانين جمعا عليهما ورق الجنة فأصابه الحر حتى قعد يبكي ويقول لها: يا حواء قد أذاني الحر" (ابن كثير، 1997، ص. 37).

أما الثعلبي فيذكر أن آدم هبط "بسندريب من أرض الهند وقيل على جبل من أرض الهند يقال له نود وحواء بجدة بلد من أرض الحجاز" (النيسابوري، د.ت، صص 27-28)، ثم يستطرد ليقول: "وجاء كل واحد منهما يطلب صاحبه حتى قرب أحدهما من صاحبه فازدلفا فسميت المزدلفة واجتمعا بجمع فسمي جمعا وتعارفا بعرفة في يوم عرفة فسمي الموضع عرفات واليوم عرفة" (المرجع نفسه، ص. 28)، بل إنه يذكر أن آدم حين هبط إلى الأرض وقبض الله له ملكا يرشده في الطريق "كان كل موضع يضع عليه قدمه عمرانا وما تعداه مفاوز وقفارا" (المرجع نفسه، ص. 31).

2.3 الصحراء مهد الحكمة والنبوءة:

يلحظ القارئ الحضيف للنصوص المقدسة والنصوص الخواف أن الصحرء هي مهبط الوحي الأول وهي مصدر الإلهام والخلاص الروحي بامتياز، إنها مكان الأبدية ولقاء الرب بنبيه. لذلك باتت فضاء طاهرا مقدسا مثلما تجلوه تجارب الأنبياء إبراهيم وصالح وموسى.

ففي التجربة النبوية الإبراهيمية لا يكاد المتدبر للنصوص المقدسة يظفر بأمر ذي بال وواضح يصف الفضاء الذي وجد به النبي إبراهيم، فأنت إن قلبت النظر في العهد القديم لن تظفر إلا بأماكن واقعية تنقل بينها إبراهيم كأور وحرّان وأرض كنعان وسهل مورة ولكن قد يستوقفك مكون من مكونات عالم الصحرء وهو الجبل إذ يذكر سفر التكوين أن إبراهيم "انْتَقَلَ إِلَى الْجَبَلِ شَرْقِيَّ بَيْتِ إِبِلٍ حَيْثُ نَصَبَ خِيَامَهُ مَا بَيْنَ بَيْتِ إِبِلٍ غَرْبًا وَعَايَ شَرْقًا وَشَيْدَ هُنَاكَ مَذْبَحًا لِلرَّبِّ وَدَعَا بِاسْمِهِ" (التكوين 12: 8).

أما في القرآن الكريم فيبدو أن المكان الذي وجد فيه إبراهيم مكان فقر لا حياة فيه، فقد جاء على لسان إبراهيم مخاطبا ربه قائلا: "رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ دُرِّيٍّ بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ" (إبراهيم 14: 37).

ولكن النصوص الخواف انزاحت عن الواد الفقر لتنهل من معين المتخيل وترسم ملامح الفضاء الصحراوي الذي وجد فيه إبراهيم. فملتأمل في نص الطبري التاريخي مثلا يعثر على المغارة فضاء آوى إبراهيم صغيرا وحماه من بطش النمرود لما لاحقه لقتله. يقول ابن جرير في هذا الصدد: " فلما دخلت السنة التي وصف أصحاب النجوم لنمرود، بعث نمرود إلى كل امرأة جبلية بقريته فحبسها عنده، إلا ما كان من أم إبراهيم امرأة آزر فإنه لم يعلم بجبلها وذلك أنها كانت جارية - حدثه فيما يذكر - لم يعرف الجبل في بطنها، فجعل لا تلد امرأة غلاما في ذلك الشهر من تلك السنة إلا أمر به فذبح، فلما وجدت أم إبراهيم الطلق خرجت ليلا إلى مغارة كانت قريبا منها، ما لي إله غيره، فولدت فيها إبراهيم عليه السلام، وأصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود ثم سدت عليه المغارة .. ولم يمكث إبراهيم عليه السلام في المغارة إلا خمسة عشر شهرا حتى قال لأمه: أخرجيني أنظر فأخرجته عشاء فظفر وتفكر في خلق السماوات والأرض وقال إن الذي خلقي ورزقي وأطعمني وسقاني لربي" (الطبري، صص. 234-235).

والذي يجلو لنا هذا المقطع الإخباري للطبري أن الفضاء الصحراوي / المغارة كان مسرح إبراهيم للبحث عن الإله، لذلك تأمل السماء حتى خال أن الكواكب هي الإله إلى حين أن أيقن أن الله أكبر مما وقعت عليه بصره فردد قائلا: "هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ" (الأنعام 6: 76-79). ومضى إبراهيم باحثا عن الحق فأتى على واقع الوثن الذي شيده أباه آزر محاولا إزالته بأن هدم الأصنام الواحد تلو الآخر هازئا بها وبواقع الكفر إذ يذكر الثعلبي أن إبراهيم "جعل يكسرهن بفأس في يده حتى لم يبق إلا الصنم الأكبر فعلق الفأس في عنقه ثم خرج" (النيسابوري، ص. 66).

فكانت عاقبته الحرق مثلما يذكر ذلك نص القرآن الكريم (الأنبياء 21: 66، 67، 68)، ومثلما تردده أيضا نصوص التفسير. إذ يذكر ابن كثير أن قوم إبراهيم قد أذعنوا لأوامر النمرود، فجهزوا الحطب وأضرموا نارا "كان لها شر عظيم وهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق، بإشارة من أعراب فارس من الأكراد" (ابن كثير، 1997، ص. 107).

وبذلك تغدو الصحراء فضاء شاهدا على عذاب إبراهيم في سبيل المقدس وفضاء الخلاص الروحي بامتياز، إنها فضاء النبوءة وانبثاق الديانات التوحيدية الثلاثة التي جعلت من إبراهيم "الجد الأول والأصل وهو أب شعب الله المختار (مجموعة من المختصين، 1991، ص.28) وأب يسوع المسيح (متى 1: 1) والنبي الحنيف و خليل الله (النحل 16: 120، وآل عمران 3: 67، النساء 4: 125).

وتحضر الصحراء أيضا في تجربة موسى في العهد القديم فضاء رعويا يفتقر لأسباب الحياة، لكنه فضاء النبوءة والإلهام بامتياز، إذ هو الفضاء الذي أثنى الجبل والعليقة مكنن تجلّي المقدّس، جاء في سفر الخروج قوله: "وَأَمَّا مُوسَى فَكَانَ يَرَعَى غَنَمَ حَمِيهِ يَثْرُونَ كَاهِنِ مِديَانَ، فَقَادَ الْغَنَمَ إِلَى مَا وَرَاءَ الطَّرْفِ الْأَقْصَى مِنَ الصَّحْرَاءِ حَتَّى جَاءَ إِلَى حُورِيبَ جَبَلِ اللَّهِ وَهُنَاكَ تَجَلَّى لَهُ مَلَكُ الرَّبِّ بِلَهْيَبِ نَارٍ وَسَطَ عَلِيقَةٍ" (الخروج 3: 1-2). واختيار الجبل مقصود لأنه رمز السمو والتعالى والطهر (Chevalier, p.512)، أما العليقة فهي نبات شوكي يشي ضمنا بأن الأرض يباب والمكان قفار وخلاء ولا أنس فيه وهو الأنسب لتخفي الإله تخفيا حتميا "فرضته طبيعة ماهيته التي تفوق قدرة الإنسان المحدودة على رؤيته أو تصوّره وتمثله" (الحمادي، 2003، ص.42).

ويبدو أن هذا الفضاء الصحراوي في المرجعية اليهودية مقدّس، طاهر وباعث على الرهبة يجليه خطاب الرب لنبية موسى حين يناديه من وسط العليقة لما همّ باستطلاع أمرها قائلاً: "مُوسَى .. فَقَالَ: هَا أَنَا فَقَالَ: لَا تَقْتَرِبْ إِلَيَّ هُنَا، إِخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ لِأَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ". (الخروج 3: 4-5)، فالرب قد أجبر موسى النبي على خلع حذائه حتى يقطع مع العالم المرئي عالم الفساد والأدران عالم الحياة الدنيا ويكون في حضرة ذات الرب وفي حضرة القداسة والطهارة معا. وبذلك استحالت الصحراء فضاء تتحرك فيه ذات الإله اللامرئية التي يسهم تخفيها وسط العليقة في مضاعفة شعور الرهبة والهلوع. وفضاء بارك فيه الرب موسى واصطفاه ليكون نبي أمته وليحمّله رسالة ينقذ بها شعبه، ويؤتيه من المعجزات ما به يكون قادرا على مقارعة فرعون مصر وتحديده.

أما في القرآن الكريم، فإن الصحراء ينبئ عنها الوادي المقدّس طوى، يقول تعالى: "فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طَوًى" (طه 20: 10-11)، والوادي يشف عن الحياة والخصب لأنه يحوي المياه وهي "الخزان الذي يحتوي جميع إمكانيات الوجود تسبق كل صورة أو شكل وتساند كل خلق" (إلياد، 1987، ص.123)، وبذلك تكون صورة الصحراء في المرجعية الإسلامية مختلفة عن نظيرتها في اليهودية التي تعد بالعدم والخلاء، رغم أن القرآن الكريم لا يغفل عن ذكر الطور الذي قيل إنه جبل حوريب في التوراة، وهو الفضاء الذي سيربط بين عالم الأرض وعالم السماء وعالم الشهادة وعالم الغيب تماما كالمرجعية اليهودية.

وإذا كانت العليقة العنصر المهم الذي أثنى الصحراء والفضاء الأهم للنبوءة، فإن القرآن الكريم قد استعاض عن العليقة بالشجرة التي تكتم عن صنفها لسر إعجازي مثلما يفصح عنه قوله تعالى: "فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ، أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" (القصص 28: 30).

أما النصوص الهوامش فقد سارت في وصفها لفضاء التجلي الصحراوي سمت نص الوحي الإسلامي من ذلك مثلا أنّ الثعلبي النيسابوري ذكر أنّ الفضاء الذي كان يتحرّك فيه موسى كان فضاء خصبا، فهو القائل واصفا حالة موسى حين تجلّى له النور الإلهي وقد تاه وسط غياهب الصحراء الممتدة: "وكان قد ظلّ الطريق، فلما أتاها رأى نورا عظيما ممتدا من عنان السماء إلى شجرة

عظيمة هناك، فتحير موسى، وارتعدت فرائصه، حيث رأى نارا عظيمة ليس لها دخان، وهي تلتهب وتشتعل في جوف شجرة خضراء لا تزداد النار إلا عظما ولا تزداد الشجرة إلا خضرة" (النيسابوري، ص. 158). ففي قلب هذه الصحراء اليانعة تلقى موسى كلمات ربه، فكانت فضاء القداسة وتجدد الحياة، لأن موسى سيقوض أرض الكفر، أرض فرعون الذي طغى وتجبر. وإذا كانت الصحراء في تجربتي إبراهيم وموسى على نحو ما وصفنا، فإنها كانت في تجربة النبي صالح فضاء المعجزة بامتياز. فالنبوءة لا تصدق إلا في ظل المعجزة ولا تحدث المعجزة إلا في الفيافي والقفار، ذاك ما أنبأت عنه تجربة النبي صالح التي غابت في المرجعية اليهودية، لكنها ظلت لافتة للنظر في المرجعية العربية الإسلامية. والمتأمل في القرآن الكريم يعدم وجود إحالة على الصحراء في قصة صالح خلافا للنصوص الحواف التي سمح لها خيالها المجنح أن تقدّر أن المكان الذي نزل فيه الوحي على النبي صالح هو مكان واقعي وهو "الحِجْرُ الذي بين الحجاز وتبوك"، مثلما يصرح بذلك ابن كثير (ابن كثير، 2010، ص. 196).

أما الثعلبي فيذكر أنّ المكان كان صخرة منفردة عن الجبال وهضبة تشرف على بطن الوادي (النيسابوري، صص. 58-59). ولكنّ اللافت للانتباه أن هذه النصوص كالقرآن تماما توقفت عند الناقة باعتبارها عنصرا حيوانيا مهما ومؤثرا للفضاء الصحراوي إذ "للناقة في جزيرة العرب مكانة مخصوصة فقد اتخذها البدوي وسيلة تنقل ومطية بما يجوب الفلاة، فوصفها وأنسها حتى لتحسبها صديقا له يشكوهم همومه ومخاوفه. وقد قامت الناقة رمزا اجتماعيا بما تتحدد مكانة الفرد، لأجلها تستعر الحروب وبواسطتها يتحدد الفضاء المقدس" (المكي، 2013، ص. 208).

ويتنبه القارئ الحصيف لقصة صالح النبوية أن الناقة هي "آية صالح أي العلامة أو البرهان القاطع على نبوته" (المسعودي، 207، ص. 47)، لما ألح على قومه بالدعاء والتبليغ فلم يؤمنوا برسالته حتى يأتيهم بالمعجزة ويخرج من الصخرة الصماء المنفردة في الجبال ناقة جوفاء (النيسابوري، صص. 68-69)، فكانت هذه الناقة "معجزة عجز القوم على الإتيان بمثلها فأبرزت الفرق بين آلهتهم وقدره إله صالح" (المكي، ص. 210)، لذلك عمدوا إلى قتلها، بل إنها صارت الضحية البديلة حين همّ قوم ثمود بالحاق الأذى بالنبي صالح، إذ هم "نالوا منه بالمقال والفعال، وهمّوا بقتله وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم" (ابن كثير، 2010، ص. 131). ولكن قتل الناقة كان وجها من وجوه خرق المحذور لذلك سلط عليهم الله سوء العذاب والعقاب وكانت الصحراء شاهدة على عنف المقدس الناجم عن انتهاك ثمود لأمر الرب وذلك بالتعدي على الناقة وشاهدة أيضا على نبوة صالح التي ما كان لها أن تكون لولا المعجزة التي أضحت الصحراء بموجبها فضاء للدفاع والتطهير.

3-3 الصحراء ملاذ الأمن والأمان

لم تكن الصحراء فضاء النبوءة ولقاء المقدس وحسب، بل كانت ملاذ النبي الأمين كلّما حفت به المخاطر في نشر رسالته. ولعلنا نستجلي ذلك من خلال تجربتي محمد وعيسى النبويتين. فقد لجأ النبي محمد إلى الغار رفقة أبي بكر فرارا من ملاحقة الكفار وطلبا للأمن مثلما تشير إليه الآية الأربعين من سورة التوبة حين يقول تعالى: "فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا". والغار من العناصر المؤثثة لفضاء الصحراء ويذكر ابن هشام أنه "غار بثور جبل أسفل مكة" (ابن هشام، 2004، ص. 86)، ويضيف الرازي أنه فضاء موحش قفر، وهو "مأوى السباع والهوام" (الرازي، 1981،

ص.65). ولكن هذا المكان على خطورته كان الملاذ الأمين لمحمد وجد فيه السكينة والطمأنينة ولقاء الرب ومعونته في حمايته من بطش الكافرين وشرهم إذ الغار كان في الجبل و"الجبل دالّ في كل ثقافة على الرب، وهو بوصفه في المخيال مكانا بسيطا هادئا كان على علاقة بأحلام الراحة الهادئة فيحلم النفس بالاطمئنان في ظل الرعاية الإلهية ويشعرها بالدفء والأمن والاستقرار"(السعفي، 2008، ص.111). والني محمد وجد الأمان في الغار أو قل الصحراء الأمان لأن خارجها يكون الموت والهلاك. فكانت الصحراء بذلك همزة الوصل بين الحياة والممات وبين الكفر والإيمان.

ولا تختلف قصة محمد في الغار عن قصة المسيح صبيّا حين لاذت به أمه مريم نحو مغارة حمايته من بطش هيرودس، وهي مغارة تقع في الصحراء حيث أقام المسيح، فقد جاء في سفر لوقا قوله: "وَكَانَ الطِّفْلُ يَنْمُو وَيَتَقَوَّى بِالرُّوحِ، وَأَقَامَ فِي الْبَرَارِيِّ إِلَى يَوْمِ ظُهُورِ إِسْرَائِيلَ"(لوقا 2: 80)، وإذا كان الفضاء الصحراوي الذي ولد فيه المسيح مذكورا في العهد الجديد فإن القرآن الكريم يشير إلى الربوة مأوى للمسيح وأمه فقد قال تعالى: "وَجَعَلْنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ رُبُوبًا وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ"(المؤمنون 23: 50). وقد رجّح الثعلبي أن تكون الربوة أرض مصر فهو القائل: "فلما عرف هردوس ملك بني إسرائيل خبر المسيح قصد قتله، وذلك أنهم نظروا إلى نجم قد طلع فعرفوا ذلك بحساب عندهم في كتاب لهم فبعث الله ملكا إلى يوسف النجار وأخبره بما أراد هردوس وأمره أن يهرب بالغلام وأمه إلى مصر، وأوحى الله إلى مريم أن الحقي بمصر فإن هردوس إن ظفر بابنك قتله فإذا مات هردوس فارجعي إلى بلادك فاحتمل يوسف مريم وابنها على حمار له حتى ورد أرض مصر وهي الربوة التي قال تعالى: وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين"(اليسابوري، ص. 347)، ويضيف الثعلبي أن الصبي في هذه الربوة قد كان في غار كما يجليه قوله: "قال الكلبي: احتمل يوسف النجار مريم وعيسى إلى غار فأدخلهما فيه أربعين يوما حتى تعالت من نفاسها"(المرجع نفسه، ص.346). ويستشف ممّا تقدم ذكره أن الصحراء كانت في تجربتي محمد وعيسى فضاء واعدا بالحياة والطمأنينة، فالغار ملاذ آمن يقوي النبي شر الموت، إذ خارج الغار يتربص القتل بمحمد من قبل الكفار وبالمسيح من طرف هيرودس. فالصحراء على هذا النحو فضاء الخلاص من العدم والفضاء الذي يعد باستمرار الحياة.

3-4 الصحراء منفى الأنبياء:

قد تسمي الصحراء أحيانا فضاء للعدم والموت ونفي الإنسان، ولعل ذلك ما نقف عنده خاصة في قصتي ابن إبراهيم ويوسف النبويتين. فالمتدبر لقصة ابن إبراهيم(إسحاق) في المرجعية اليهودية يلحظ أن الصحراء كانت فضاء القربان وفضاء الموت واستباحة الدم من أجل مرضاة الرب، إذ يحضر الجبل مكوّنًا من مكوّنات الصحراء، مسرحا للتضحية بالابن وإقامة المذبح إذعانا لأمر الرب "فتكريس المذبح يشير إلى الانتماء التام لله"(نخبة من المختصين، ص.343)، فقد جاء في سفر التكوين قوله: "وَبَعْدَ هَذَا امْتَحَنَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ فَتَدَاوَاهُ: يَا إِبْرَاهِيمَ فَأَجَابَهُ: لَبَّيْكَ فَقَالَ لَهُ خُذْ ابْنَكَ وَحِيدَكَ إِسْحَاقَ الَّذِي تُحِبُّهُ وَانْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ الْمَرْيَا وَقَدِّمَهُ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أُهْدِيكَ إِلَيْهِ"(التكوين 22: 1-2).

أما القرآن الكريم فيتكّم عن مكان القربان لسرّ إعجازي فيه، ولعلّ ذلك ما دفع المفسرين والقصاص إلى التجنيح بخيالهم لترسم ملامح الفضاء الذي قدّم فيه القربان وأريق الدم باسم الله. فابن كثير في قصصه يذكر أنّ المكان الذي فيه هم إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل إنّما

هو مكان صحراوي قفر يصعب العيش فيه، فهو القائل: "وهذا اختبار من الله عزّ وجلّ لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر، وقد طعن في السن، بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد قفر وواد ليس به حسييس ولا أنيس ولا زرع ولا ضرع، فامثل أمر الله في ذلك، وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلا عليه، فجعل الله لهما فرجا ومخرجا، ورزقهما من حيث لا يحتسبان" (ابن كثير، 1997، ص. 203). هكذا تغدو الصحراء في تجربة إبراهيم مع ابنه مسرحا شاهدا على القتل والإعدام رغم أن إراقة الدّم لم تكن إلّا ضربا من ضروب التواصل بين الرب ونبيه إبراهيم.

أما في قصة يوسف فالصحراء كانت فضاء عقابيا وفضاء نفي. وإذا كان القارئ للعهد القديم يظفر بالبرية مسرحا لعقاب يوسف من قبل إخوته مثلما يلوح لنا ذلك في سفر التكوين (التكوين 21: 22-23)، فإنه في نص الوحي الإسلامي يعدم وجود أية إحالة تشير إلى ملامح الفضاء الذي عوقب فيه يوسف، ولعل ذلك ما شحذ خيال القاص فعول على العجيب المدهش ليرسم لنا فضاء صحراوي خاليا تنعدم به الحياة وينقطع به المسير لأنه الأنسب لنفي يوسف. فحسد الإخوة وغيرتهم من يوسف لأنه الأثير عند أبيه ولد في نفوسهم الأمارة بالسوء حب الانتقام من أخيه وذلك بالتخلص منه في غياهب الصحراء القفرة حيث لا زرع ولا ماء، إذ ألقى الإخوة بيوسف في البرية بأن طرحوه في بئر (التكوين 37: 22). ولا يختلف هذا الفضاء العقابي عما ذكر في القرآن الكريم وهو الحب (يوسف 13: 9). والحبّ أو البئر رمز لكتمان السر وإخفائه (Chevalier, p.625)، والصحراء أمست من خلال صنيع الإخوة بأخيهم فضاء يتستر على الجريمة وفضاء للعقاب، إنها مكان نفي يوسف وتصميت جسده بل تبكيته ونسف محبة الأب يعقوب له. باختصار إن الصحراء مارست ترويعا لجسد يوسف ومحاولة لتدميره من أجل القضاء عليه ونفيه. لقد كانت الصحراء شاهدة على العدم والموت.

خاتمة:

لقد أسلمنا النظر في دلالة الصحراء الرمزية من خلال النصوص المقدسة والنصوص الهوامش قصصا وتفسيرا إلى حقيقة مؤداها أنّ الصحراء لم تكن امتدادا جغرافيا خاوي الوفاض من أي معنى، بل كانت مستودعا لا ينضب من الدلالات العميقة والمضامين الغميسة. ولم تكن قطعا فضاء هامشيا إذ هي قد أسهمت في نحت هوية الأنبياء والرسل عبر الرحيل الثقافي من ديانة إلى أخرى. فكانت الفضاء الذي نشأ فيه النبي وترعرع والمكان الذي عانق فيه المقدس ولاذ إليه طلبا للأمن والسلم رغم أنها من جهة أخرى كانت فضاء النفي والعقاب أو الموت والعدم. فالصحراء على هذا النحو فضاء رامن، إنها نص داخل النص وكتاب مفتوح يحتمل القراءة والتأويل، لذلك كانت قاذح المفسر والقاص الأكبر لنسج القصص والانفتاح على المتخيل حتى لتغدو الصحراء في اتساعها وفراغها وعرائها فضاء يبعث على الدهشة لأنها مكن الأسرار والغموض والعوالم الخفية الباعثة على الحيرة والسؤال.

المصادر والمراجع:

*-المصادر

-القرآن الكريم، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة السابعة، 1405هـ..

-الكتاب المقدس(العهد القديم)، كتاب الحياة، ترجمة تفسيرية، 1988.

*-المراجع

-ابن كثير(أبو الفداء الحافظ)، البداية والنهاية، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 2010.

-_____، تفسير القرآن العظيم، تح. سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية، الرياض، الطبعة الأولى 1997.

-_____ قصص الأنبياء، تح. عبد الحي الفرماوي، دار الطباعة والنشر الإسلامية، الطبعة الخامسة، 1997.

-ابن فارس(أبو الحسن أحمد)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، طبعة دار الجليل، بيروت، الطبعة الأولى .

-ابن منظور(محمد)، لسان العرب، دار الجليل، بيروت، د.ت.

-ابن هشام(محمد)، السيرة النبوية، مؤسسة النور، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 2004.

-أبو علي(منصور حمدي)، جغرافية المناطق الجافة والنظام العام المناخي، دار وائل للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2010.

-الألوسي(السيد محمود شكري)، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، صححه محمد مجتهد الأثري، طبعة دار الفكر العالمية، د.ت.

-إلياد(مرسيا)، المقدس والديني، تعريب نهاد خياطة، الطبعة الأولى، دمشق، 1987.

-حمادي(صلاح الدين)، عوالم المرئي واللامرئي، يافا للبحوث والدراسات والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى 2003.

-خفاجي(عبد الله عبد الجبار)، قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي، مكتبة الكليات الأزهرية، 1980.

-الرازي(فخر الدين)، مفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى 1981.

-السعفي(وحيد)، في قراءة الخطاب الديني، نجمة الدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2008.

-صالح(صلاح)، الرواية العربية والصحراء، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1996.

-الطبري(محمد بن جرير)، تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف، مصر ، الطبعة الثانية.

-الكويتي(إبراهيم)، نزيف الحجر، دار التنوير للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، 1992.

-مجموعة من المختصين، معجم اللاهوت الكتابي، دار المشرق، ش.م.م.، الطبعة الثالثة، 1991.

-مجموعة من المؤلفين، جماليات المكان، أحمد طاهر حسنين، ظرف المكان في النحو العربي، عيون المقالات، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية

1988.

-المسعودي(حمادي)، متخيل النصوص المقدسة في التراث العربي الإسلامي، دار المعرفة للنشر، تونس، الطبعة الأولى 2007.

-المكي(باسم)، المعجزة في المتخيل الإسلامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب ومؤمنون بلا حدود، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، 2013.

-النيسابوري(الثعلبي)، عرائس المجاس، المكتبة الثقافية، بيروت لبنان، د.ت.

-Bachelard(Gaston), La terre et les rêveries du corps, Cérés, Tunis, 1996.

-Chevalier(Jean) & Gheerbrant(Alain), Dictionnaire des symboles, éd.Robert Laffont.